ماذا نقرأ

كان كارليل الأديب الانجليزى المعروف يقول إن الكتاب هو جامعة الشعب . وهو كذلك فى الأمم المتمدنة ، فان جميع ما يدرسه أو تبحثه الجامعات تؤلف فيه الكتب الشعبية فيستطيع أفراد الشعب أن يلموا بها ويبحثوها أو يواصلوا العناية ببحثها والوقوف على ما يجد فيها . وعلى الرغم من كثرة الجامعات فى أوربا وأمريكا لا تزال جمهرة الشعب بعيدة عن التعليم الجامعى حتى عند ما يكون هذا التعليم بالمجان . لأن القادرين على أن يرصدوا شبابهم الى سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين للتعلم فى الجامعات قليلون . فالثقافة العامة فى جميع الأقطار المتمدنة تعتمد على المطبعة أكثر مما تعتمد على الجامعة . والكتاب الذى تطبعه المطابع هو وسيلة النور الذى يتفشى فى جميع الأوساط غنيها وفقيرها ويبعث الاهتمام الذهنى بشؤون العالم والانسان . ويلى الكتاب المجلة ثم الجريدة ثم منبر المحاضرات .

وبحسب القارئ أن يعرف أن ما يطبع من الكتب الجديدة فى بريطانيا وحدها لا يقل عن ١٥,٠٠٠ كتاب فى العام . وأن ما يطبع فى العالم الانجليزى يتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ كتاب فى العام أى أن المتوسط يبلغ نحو ١٠٠ كتاب جديد فى اليوم ! وهذا إلى مجلات إخصائية وشعبية تتناول موضوعات ثقافية مختلفة . فنحن فى مصر مثلا ليس فى لغتنا مجلة تختص بدرس القراءة مع أن فى أوربا وأمريكا ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين مجلة تتناول هذا الموضوع بالدرس والبحث . وهو موضوع أجنبى عنهم قريب منا بل حميم لنا .

ولهذا السبب يمكن للفرد العادى الذى لم يحصل على تعليم جامعى فى بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة مثلا أن يثقف نفسه ويرتفع الى المستوى العالى فى العلوم والآداب لمحض اطلاعه ومتابعته للكتب الجديدة التى تبحث الموضوع الذى يهتم له . بل إن كثيرا من العلماء والفلاسفة الأوربيين والأمريكيين لم يحصلوا على تعليم جامعى ولكنهم نبغوا وبرزوا لأنهم عنوا بالدرس المستقل من الكتب الشعبية التى ارتفعوا منها الى الكتب الاخصائية . فان سبنسر وداروين مثلا كلاهما لم يحصل على تعليم جامعى ومع ذلك فلكل منهما أثره العميق فى الثقافة الحاضرة ، ونستطيع أن نذكر العشرات بل المئات من الأدباء والعلماء والساسة الذين برزوا اوقادوا أوهدوا مثل تولستوى وبرناردشو وابراهام لنكولن وفيليب سنودن وموسولينى وأتاتورك بان كل هؤلاء لم يحصل واحد منهم على تعليم جامعى وكل ما تعلموه كان من

الكتب أى كتب الشعب . ومن هنا تتضح لنا قيمة الوسط الراقى الذى يرفع أعضاءه ويؤهلهم للرقى بتعميم الثقافة بينهم .

ولسنا هنا فى صدد التنميق الانشائى فى قيمة الكتاب ، لأن الكتاب ليس من الكماليات التى يزجى بها الوقت وإنما هو ضرورة لكل إنسان متمدن فى الحياة العصرية . فان الذوق الراقى لا يتكون إلا بالنمو الفنى للذهن ، وكذلك الشخصية لا تتكبر بغير الدرس المتواصل . وحيث يقف الدرس يقف النمو . ولم يجعل الكتاب لقتل الوقت وانما جعل للانتفاع بالوقت . وقد أصبحت الكتب تتناول جميع الموضوعات التى تتصل بالعمل الذى نمارسه أو الشأن الذى نهتم له . ولذلك يجب أن نقرأ لكى نرقى . ثم هناك الهواية التى يجب أن تصدنا عن الغواية وتملأ وقتنا بالاشتغال المفيد بدلا من ذلك الخواء النفسى الذى يسارع إبليس الى ملئه بما يوحيه الينا من أفكار خبيثة شريرة . وأى هواية أفضل من الكتاب نتعلق بها منذ الشباب فتلازمنا حتى أيام الشيخوخة فيدوم بيننا وبين العالم هذا الاتصال الحى الذى يجعل الأيام مليئة بالاهتمام مما يرقى أذهاننا ويكبر شخصيتنا .

والبيت الراقى هو البيت الذى تخص إحدى غرفه أو إحدى زواياه بخزانة صغيرة أو كبيرة من الكتب التى يختلف مستواها . فهى جامعة للكبار ومدرسة للصغار وسلوة ذهنية للجميع تشركهم فى الحديث الطلى وتبعثهم على المناقشة الذكية .

ولكل أمة أنواع من التجارة تقبل عليها . ويجب ألا تكون الكتب والمجلات أقل من غيرها من التجارات كسبا للقائمين بها حتى تستطيع أن تجذب اليها أذكى الأذهان وأزكى النفوس لتهيئة الغذاء الروحى للأمة . فماذا نفعل نحن فى مصر لكى نجعل هذه التجارة ، تجارة الكتب ، رائجة ؟

هل نقبل على شراء الكتب الجديدة ؟ هل نتغالى فى شراء الكتب القديمة ؟ هل نفاخر بالمجلدات التى ورثناها عن آبائنا كما نفاخر بالأثاث أو العقار ؟ وهل يجد المؤلف المصرى منا هذه الرعاية التى تجعله يرصد حياته للتأليف ؟ وهل الكتب تجارة رائجة فى مصر ؟

إن كل سؤال من هذه الأسئلة ينطوى على الجواب . وهو جواب مؤلم . فان المؤلف المصرى يشقى بصناعته وهو يسرع إلى تركها بعد أن يكون قد استهلك ماله فيها . بل إن صاحب المجلة الراقية التى ترفض اللهو تنتهى حاله أيضا الى مثل حال المؤلف من الضنك . فهو إما أن يهجر عمله وإما أن يتجدر فيخص صفحاته بالسخف والهذر ، حتى لقد رسخ الاعتقاد عند أصحاب المطابع والناشرين بأن المجلات والكتب الجدية لا تلقى رواجا فى مصر ولكنها تجد بعض الرواج فى الاقطار العربية الأخرى . وهذا عيب يؤلمنا التفكير فيه طويلا

فان التأليف صناعة أو حرفة إذا لم يجد محترفها منها قوت عياله فانه يضطر الى العدول عنها الى غيرها . وكذلك الصحافة الراقية .

ونحن نتأمل الميدان الصحفى لهذه المجلات فلا نجد ما يشرفنا فيها . فانها فى ميدان الصحافة تشبه التمثيل الهزلى فى الميدان المسرحى : سخريات وأضاحيك ولهو كأن الدنيا ، هذه الدنيا التى تغلى بالأفكار الجديدة ، تعيش بعيدة عنا لا علاقة لنا بها ولا يجوز أن نعرفها. ولذلك نقاطع الدرس بجميع ألوانه سواء اكان درس السياسة أم درس العلوم أم درس الآداب أم درس الاجتماع أم غير ذلك . وبحسب القارئ أن يعرف مدى الجهل الذى نتورط فيه فى الوقت الحاضر ، لأن مجلاتنا تلهو ولا تجدّ ، ولأن مؤلفينا قد هجروا التأليف يائسين ، فنحن نجهل الأسس التى تقوم عليها الحرب الأوربية ، ونجهل نهضة الصين بل نهضة اليابان ، ونجهل صفقة مشروع الاصلاح الشامل التى اقتضت إنفاق ثلاثة آلاف مليون جنيه فى الولايات المتحدة . ونجهل الاصلاحات الاجتماعية فى الأمم الأوربية والأمريكية . بل نحن نقف موقف العجز إن لم نقل موقف الخزى حين نبغى درس تاريخنا — تاريخنا نحن — فلا نجد المؤلفات المطولة عنه إلا فى اللغات الأوربية . وهذا الى جهلنا التام بالمكتشفات العلمية المختلفة .

ان من واجبات رب الأسرة أن يعنى العناية كلها برقى أعضائها الذهنى . وهو مسئول عن رعاية هذه التجارة أو الصناعة الشريفة أى تأليف الكتب و إخراج المجلات الجدية الراقية . فعليه أن يتعهد بيته بشراء كل ما يجد فى العالم العربى من كتب أو مجلات ، وعليه أن يفاخر بتجليد الكتب وأن يجعل لرف الكتب مكانه فى الصالون الذى لا يقل عن مكانة البيان . وبذلك فقط تحيى الآداب والعلوم وتنمو بين طبقات الشعب .